الجزء ٤ المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : نيسان سنة ١٩٢٧ م الموافق شوال سنة ١٣٤٥ هـ

شيء عن اناتول فرانس (١)

سير العلم — القديم والحديث — الكلام عن اناتول فرانس — تراجم الكتاب — مذهب اناتول في الشك — التفاؤل — الحزن واسبابه — المساهمة — الحب — الاسلوب المذهبي — الاسلوب الوجداني — طراز اناتول في النقد — لغة لافونتين — ميل اناتول الى لغته — حرصنا على اللغة .

قال الاستاذ شارل ريشه احد اعضاء معهد باريز في كتابه (العالم) :

« يسير العلم في سبيله سيراً تحار ثواقب الانظار في سرعته ، على ان العلم لا يزال في عنفوان امره ورَيْعان عمره ، فالعالم (ارخميدس) على نبوغ فضله و براعته كان يجهل مايعلمه المعلمون اليوم في المدارس الابتدائية ، وأجهل تلميذ من تلاميذ المدارس التجهيزية يعرف من العلوم اموراً يجهلها العالم (غاليله) نفسه ، ما بين العالم (فرانكلان) وبين العالم (انشتين) مائة وخمسون سنة ، فتصور مسير العلم في مائة وخمسين سنة ! ما أعظم انقلاب الأفكار ! لم يكن من قبلُ علمُ الاحافير ولا علم الجراثيم ولا علم التصوير ولا الطيران ولا خطوط الحديد ولا حلُّ الطيف الشمسي ، فلا يتجاوز عمر علوم البشر قرناً ونصف قرن وما هو قرن ونصف قرن . المشي غير وئيد ، اننا نسير الى معرفة الاشياء على سلسلة هندسية متزايدة ، وفي يوم من الايام سيكون للرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على المادة مهما اختلفت اشكالها » .

---

(١) محاضرة الاستاذ المحقق السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع القاها في ردهة المجمع يوم ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٢٧ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا ما قاله الاستاذ (ريشه) فلم يتجنب نهج الصواب في وجيز كلامه ، لقد ظهرت علوم في ايامنا لم تظهر من قبل ، فانبسطت آفاق العقول فتبدل بانبساطها طراز التفكير وتغير نمط النقد ، وطفق الكتاب يتغلغلون في حقائق الامور ، فظهرت على كتاباتهم آثار هذا الانقلاب واختلفت اصولهم في التفكير عن الاصول التي كانوا يبنون عليها من الف سنة ، لقد تبدلت الارض غير الارض والسموات ، واستحال العمران واستفاضت مذاهب الحضارة فأصبح الجمود على القديم متلفة للقرائح ، الا انه ما كل قديم فاسد ولا كل حديث صالح ، واذا جازلنا ان نستهجن البكاء على الاطلال او وصف مرابض الغنم ومعاطن الابل في عصر طارت فيه الطيارات ودبّت فيه الدبابات ، او اذا جاز لنا ان نستشنع الكلام عن قبة من ادم او مظلة من شعر او خباء من صوف او بجاد من وبر او خيمة من شجر او قنة من حجر في دهر ذهبت فيه القصور في السماء فلا يجوز لنا ان نشذ عن لغة نسجت أفوافها الليالي وطرزت أبرادها الايام فوسعت ما في السموات والارض .

لقد انقلبت العقول والافكار فنشأ النمط الحديث في الادب وليس في هذه الثورة الفكرية شيء يستكره اذا لم يكن معها ثورة تذهب بمحاسن اللغة والأسلوب فان الحياة تستلزم الحركة ولا ريب ، قال ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا المقيم :

« ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ، وله تأخذ بقول من قال : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وتدع قول الآخر : كم ترك الاول للآخر ، وهل الدنيا الا أزمان ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات الاوهام ، ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ، وله لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه و يجمع مثل جمعه ، و يرى في كل ذلك مثل رأيه ، وما نقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوادر الاحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، او ما علمت ان لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ، وله حجرت واسعاً وحظرت مباحاً ، وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب أدب غزير ولضلت افهام ثاقبة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكانت ألسن لسنة ولما توشى احد لخطابه ، ولا سلك شعباً من شعوب البلاغة ولجّت الأسماع كل مردد مكرر وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ » .

ابو الحسين هذا حفظه الله من المجدّدين او المتجددين على ما يستنبط من كلامه ، الا انه نشأ في عصر انتهت فيه اللغة الى ابعد غايات الحسن وبلغت أقصى نهايات الجودة والظرف ، فكانوا اذا نزعوا عن اللغة برداً قشيباً خلعوا عليها برداً أقشب ، واذا جرّدوها من ديباجة طريفة ألبسوها ديباجة أطرف ، وحسبي ان أذكر من أئمة ذاك العصر ابن العميد والخوارزمي والصابي والصاحب والبديع والثعالبي وأمثالهم من الذين حسنت بهم صناعة الانشاء ، وما بينهم وبين الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الا فيئة من الدهر ، فكانت اللغة في حصن حصين وركن ركين فلم يكن في تجديدهم خوف عليها ، وما انحطت اللغة عن طبقتها الا لما ذهبوا بين سمع الارض وبصرها . اما المجدّدون في هذا العصر فقد بالغت طائفة منهم في الامر حتى أصبح جديدهم سخافاً رثيثاً . فذهبوا الى إطراح كل قديم ومحدث ، وجاهلي ومخضرم ، واعرابي ومولّد ، فلم يستملح ذوقهم كلام الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد وأشباههم من امراء البيان . وزعموا ان أساليب المتقدمين لا تسع علوم هذا العصر ولا تستوعب طرائف الحضارة وبدائعها فاذا بدّلوا أنماط التفكير لزمهم ان يبدلوا أساليب الكلام ؛ وهذا موطن الغلو في آرائهم . لئن ارتقى الفكر البشري في هذا العصر فان كلام العرب منحط عن طبقته في الجاهلية والاسلام . فاذا لم يبلغ كلامنا اليوم مبالغ كلام المتقدمين فأي عذر لنا في الشذوذ عن أساليبهم ، وكيف نزعم ان لغتنا اعلى من لغة القرآن والمنتحبين على أذيال القرآن .

ترجم الدكتور ماردروس القرآن الى لغته الفرنسية بعد ان استعد لهذا الامر عشرين سنة وقد كتب عن هذه الترجمة الاستاذ باولوسكي مقالة في مجلة (Les Annales) جاء في خاتمتها ما يلي :

« لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغاً أجمع معه المبشرون على الاعتراف بانهم لم يستطيعوا ان يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم . واستنتج الدكتور من ذلك ان الكلمة اذا وضعت مواضعها وأنزلت منازلها كانت سحراً حلالاً » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فمن الذي يتجرح اليوم بان يأتي بكلام ينزل على أكباد ثلاثمائة مليون رجل نزول الماء الزلال على الكبد الحرّى . فاللغة التي تخرج عليها طائفة المجددين هي لغة جمهور من الكتاب والخطباء والشعراء تدارسوا كلام القرآن حيناً من الدهر طويلاً حتى وصلوا الى ما وصلوا اليه من شعاب البلاغة . تزعم هذه الطائفة انها تذهب مذاهب الغربيين في كتابتها فكأنما خيل اليها ان أدباء الغرب لا يبالون بقدماء كتابهم وشعرائهم .

هذا اناتول فرانس باقعة دهره !

تحدرت اليه بلاغة المتقدمين فحل في الإنشاء المحل الارفع حتى اطبق أدباء وطنه وفيهم عدوه وصديقه على الاعتراف بان اناتول حفظ اللغة في القرن العشرين ، فلم يتطرق اليها الفساد ، فلولا حرص اناتول على اللغة القديمة وتعلقه باهدابها لم يكن له المنزلة الرفيعة في الأدب .

وما اللغة القديمة التي يحرص عليها اناتول الا لغة المدرسيين اي لغة القرن السابع عشر والقرن السابع عشر أطيب عصور الادب الفرنسي ، فقد بلغت فيه اللغة المبالغ وبينها وبين لغة كتابنا البلغاء امثال ابن المقفع شبه عظيم وان رجلاً حفظ لغة قومه لجدير بان نعرف سيرته ، وتنقيل طريقته .

الكلام عن (اناتول فرانس) بعيد الشقة ، مترامي الاطراف ، فلا يأمن الغائص على هذا اللؤلؤ المكنون ان يغرق في لجة خضم ملتطم الأمواج . واني أخاف اذا حاولت ان اقول عنه كل شيء ان لا اقول شيئاً . واني لأخشى اذا اردت ان اعرض على الجمهور كل طرائفه ان لا اعرض طريفة . فآثرت ان ألمّ باناتول إلماماً دون الافاضة في مطولات اخباره وآرائه . ولو اردت ان أشبع القول في عبقريته لعمدت الى كتب ومجلات وصحف شتى توغل اصحابها في هذا الافق المبسوط كل متوغل . بيد اني احببت ان أبرز آثاراً بقيت في نفسي ورسوماً رسخت في ذهني من مطالعة بعض كتب ألفها اناتول فرانس . واني ارى ان الباحث عن اديب من الادباء اذا اجتمعت له عناصر البحث وتوفرت لديه مواد التنقيب لزمه ان يكون مستقلاً في حكمه ، حتى يكون هذا الحكم صادقاً ، ولكنه اذا نقل ما قاله الناس دون اعمال فكره كانت الصورة التي يعرضها مزورة مزوّقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولد اناتول فرانس في باريز سنة ١٨٤٤ فكان لمشاهد جواد باريز الجميلة تأثير كبير في ذهنه فقد كانت هذه الجواد يومئذ هادئة مخضلة فكان اناتول يسرح الطرف في قصر (اللوفر) و يصوب النظر و يصعده في قصر (مازاران) فملأت هذه المباني عينه ، وغمرت قلبه فمتع خلقه برونقها ومزج قريحته برقتها ، ولم يصدق انها من آثار البشر . فكان الشك يختلج في صدره ، وقد بعثه تأمله هذا على الشغف بالفنون والحنين الى الماضي وكان ابوه كتبيًا فأيقظت فيه هذه الحرفة ولعًا بالادب القديم و بالكتابة .

* * *

من محاسن ادب الافرنجة انك اذا تفرغت للكلام عن اديب من أدبائهم اوشاعر من شعرائهم او خطيب من خطبائهم الى غير هذه الطبقات من الناس الذين يقلبون العالم بنسج طبائعهم وسبك افهامهم وصوغ اذهانهم وجدت في بعض الاحايين مجال القول ذا سعة ، فانك لا تشاء ان تعرف شيئًا عن اخلاق هذه الطبقات وآرائهم وعاداتهم وتقاليدهم واوضاعهم ونشأتهم وسحناتهم وهيآتهم الا عرفته . وقد بالغوا في ذلك فوصفوا في كتبهم كيف ولدوا و كيف عاشوا و كيف ربّاهم اهلهم . ووصفوا اخلاق آبائهم وأمهاتهم فيقيدون كل شاردة و يدونون كل نادرة وقد يتولى ادباؤهم وصف حياتهم باقلامهم ، والمرء اعرف ببواطنه و كوامنه من غيره ، وهذا النمط قليل في ادب العرب .

من هؤلاء الكتاب الذين وصفوا في كتبهم بدأة حياتهم وميعة شبابهم اناتول فرانس فهو يرى ان اتقان الكتاب لهذا الطراز اشد من اتقانهم لغيره فانهم يجدون لذة في هذا الوصف فيحملون القراء على مشاركتهم في اللذة وقلما ينزل الوحي على كاتب مثل ما ينزل عليه وهو يكتب عن خوالجه ولواعجه ، فأجمل كتب روسو « اعترافاته » واجمل كتب شاتو بريان « مذكرات ما وراء القبر » .

الف اناتول فرانس اربعة كتب رائعة تصرف به الكلام في تصوير حياته كل متصرف ، واناتول فرانس كلف بالاستطراد في كتاباته فهو يخرج من الجد الى الهزل ، ومن الحزن الى السهل نفيًا للكلل وبعدًا من الملل فكثيرًا ما يحب ان يلهو في سبيله ، فاذا مضى لطيته ولم يلو على شيء وصل الى غرضه في طرفة عين وهذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما لا يريده ، فانه يرى اللذة في الجيئة والذهوب لان التنقل في الكلام مدرجة الى اللهو وهذا هو طراز الجاحظ في الكتابة والتأليف .

كان والد اناتول يرى في اول نشأة ولده ان عقل كلبه ينمو اكثر من عقل ابنه ، فلم يقع في خلده انه يأتي يوم يصبح فيه اناتول مفرداً علماً يملأ الدنيا و يشغل الناس .

وقد كان بين اناتول وابيه اختلاف في المعتقد والذوق فكان والد اناتول يؤمن بالله يختلف عن هذا العالم ، و بروح تختلف عن هذا الجسم ، اما اناتول فانه لم يعن بما وراء الطبيعة ولم يصدق كل ما يقال له . وقد شرع وهو طفل صغير في تعلم الكتابة فحاول ان يكتب في اللاهوت والأخلاق فافتتح كتابته بهذا الكلام « ماهو الله » وعرض العبارة على أمه فأومأت اليه في وضع علامة الاستفهام بعد كلمة « الله » إشارة الى انه يسأل عن امر يجهله ، فاستعصى وقال : اني اعرف الله ولا استفهم وطال الجدال بينهما وامتنع عن وضع العلامة .

قال اناتول : وقد تغير طبعي من ذاك الحين فاني لا امتنع عن وضع علامة الاستفهام في كل مقام مناسب وقد أتعرض لوضع هذه العلامة في كل ما اكتب واقول وفي كل ما أفكر فيه . ولو تراخى اجل أمي لقالت لي « لقد جاوزت الحد يا اناتول » وفي هذا الكلام إشارة الى ان اناتول يشك في كل شيء في العالم . فان فلسفته الشك ، ووضع علامة الاستفهام بعد الكلمة إلماع الى الشك ، على انه يقول مهما كان شكنا الفلسفي فاننا مضطرون الى ان نعمل في الحياة كأننا لم نشك في شيء . فلم يكن مذهب اناتول الشك المطلق فهو يخشى هاتين الكلمتين الجافتين « انا اشك » لان المرء اذا كان شك في الامور وجب عليه ان يسكت فالكلام إثبات واناتول لم يجرأ على السكوت والاعتزال فقد شاء ان يؤمن فآمن الا انه آمن بان الامور نسبية في هذه الدنيا .

كان اناتول يرى ان ايمان ابيه بالله هو الذي جعله متفائلاً بالحياة ، الا ان هذا الوالد كان مع تفاؤله سوداوياً قليل الضحك قليل الميل الى المبزأة ، اما اناتول فقد اخذ عن ابيه مذهب التفاؤل الا انه كان فرحاً في حياته على خلاف ابيه ، فقد نظر الى الحياة من وجهها الصحيح فلم تغلب عليه السوداء التي غلبت على ابيه ، ولا مثلت له

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأوهام اموراً لا حقيقة لها ، فليس في الدنيا على مايقول حياة حسنة ولا حياة سيئة ، لا شيء شريف او معيب في ذاته ولا شيء عادل او غير عادل ، لذيذ او أليم ، صالح او فاسد . وانما الرجل هو الذي يجعل صفات للاشياء كما يجعل الملح طعماً للمآكل .

هذا هو رأي اناتول في الحياة وهو يقول من عاش طمحت نفسه فطلب المطالب وبقدر ما يحسب المرء ان مطلبه حلو او مر تكون الحياة في نظره حسنة او سيئة . يألم الرجال لانهم ليس في ايديهم ما يظنون انه خير او اذا صار اليهم هذا الخير خافوا ضياعه ، و يألمون ايضاً لانهم يكابدون ما يظنون انه شر من الشرور فاذا بطلت هذه المعتقدات ذهبت آلامهم ، والناس سواء في عجزهم عن عمل الخير والشر فان الخير والشر لا اثر لها الا في الرأي . والعاقل من الناس يرى العادة والمصطلح اصل كل شيء . هذا هو معنى كلامه « الامور نسبية في هذه الدنيا » . وقد قذف ابو الطيب المتنبي هذه الفلسفة في بيت فقال :

راعتك رائعة البياض بمفرقي ولو انها الاولى لراع الاسحم

البشر في نظر اناتول هم الذين يستجلبون العذاب الى قلوبهم و يدخلون الآلام على نفوسهم فاسمع ما قاله في الحزن و كيف علله .

« أشد ما يكون حذقنا باستجلاب العذاب الى قلوبنا ، وأعظم ما تكون مهارتنا في جر الألم الى نفوسنا ، لقد ضاعفنا آلامنا وتممنا نقصها ازاء اللذة لحواسنا . لقد ظهرت منذ بدء الخليقة ونشوء العالم امرأة مقنعة اسمها «السوداء» ولكن فلنعدل دون شيء من الاشتطاط فقد أضفنا ولا ريب بعض الشيء الى احزان النفس ولكل منا نصيب في إنشاء هذه الآلام ، آلام الروح .

العلم لا ينشيء شيئاً من السعادة ، فقد قطفنا ثمر شجرة العلم واكلناه ، ولم يبق منه في الأفواه الا طعم الرماد . لقد مشينا في مناكب الارض وخالطنا أمماً شتى منها السود والحمر والصفر ، و بان لنا اختلاف البشرية ، ورأينا ان هذا الاختلاف اعظم مما كنا نتصوره ، ووجدنا انفسنا أمام اخوان اجانب لا تشابه ارواحهم ارواحنا الا بقدر ما تشابهها ارواح الحيوانات ، ثم جلنا في الفكر كل مجال فقلنا ما هذه البشرية التي تتغير سحناتها وارواحها وآلهتها بتغير مباآتها ، كنا لا نعرف من الارض الا حقولها التي كانت تخرج لنا الخيرات وكانت هذه الارض كبيرة في اعيننا فلما عرفنا مقامها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في العالم تصوّر لنا صغرها ، فقد علمنا انها ما كانت الا قطرة طين ، فوضع هذا العلم منا ، وكنا محمولين على الظن بان اشكال الحياة والعقل كانت اعظم مما تمثل لنا ، وان في الكواكب والعوالم بمجامعها مخلوقات تفكر ، ففهمنا بعد ذلك ان عقلنا صغير . ان الحياة في ذاتها لا هي طويلة ولا هي قصيرة . والأغرار الذين يقيسونها بالنسبة الى مدتها الوسطى يقولون والحق يقولون ان المرء اذا مات بعد ان يخطه الشيب فقد قضى لبانته من الحياة ، اما نحن فما ذا صنعنا ؟ فقد شئنا ان نحزر عمر الارض القديم وعمر الشمس وها نحن الآن نقيس حياة البشر على ادوار طبقات الارض وعلى اعمار العوالم فرأينا بعد هذا القياس ان الحياة قصيرة ، غرقنا في بحر الزمن والمسافة فتبين لنا اننا لم نك شيئاً فثقل علينا هذا الامر ولم نشأ ان نقول شيئاً بسبب كبريائنا فخجلنا واصفرت وجوهنا والخطب الجلل ان ايماننا ذهب بذهاب جهالتنا الحسنة ذهب رجاؤنا واضمحل املنا فلم نؤمن اليوم بالذي كان عزاء لآبائنا وهذا شديد علينا ، فقد كان الايمان بجهنم انسبها يطيب و يعذب .

ومما زاد في بؤسنا ان تكاليف الحياة المادية اصبحت اثقل من قبل ، فان الجماعات الحديثة قد جوّزت ضروب الأماني فاستثارت بذلك كل مجهود . واصبح التزاحم على الحياة والتنازع فيها اشد من كل دهر وصار الظافرون احمق ، والمنكسرون اعظم انكساراً ، لقد اضعنا حب الخير بضياع الايمان والرجاء وكانت هذه الفضائل الثلاث تحمل الأرواح اليائسة على ظهر هذا البحر ، بحر العالم ، فمن الذي يأتينا اليوم بالايمان والرجاء وحب الخير ! » .

* * *

كان اناتول سعيداً في حداثة سنه ولكنه يقول : السعداء لا يعرفون اموراً كثيرة عن الحياة فالألم هو مهذب الرجال الأكبر والألم هو الذي علمهم الفنون والشعر والأخلاق وهو الذي اوحى اليهم البطولة والشفقة وهو الذي جعل قيمة للحياة عندما يغامر الناس في حياتهم .

ومن كان متفائلاً بالحياة فأخلق به ان يكره الموت ، و يخاف شدته ، واناتول من الذين يكرهون الموت قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان الموت في كل دهر من الدهور مخوفاً فظيعاً ، ومهما قالوا لك لاينبغي لمرء ان تأخذه المخافة من ظلمة اللحد وضيق الأرماس فما الموت الا العدم فالرجل يجيب عن مقالهم هذا بان الساعة الأخيرة تملأ القلوب خوفاً ورعباً . كان الاغريق يرهبون غم الضريح ويخشون هول الموت الا انهم لم يقبحوه ولا شنعوه ، فان مخيلاتهم قد زينت كل امر من امور الدنيا وجعلت لقلع الحياة بهجة ورونقاً اما القرون الوسطى فقد هولت علينا بنار جهنم وخوفتنا بخيالات كئيبة مستكرهة فصورت لنا شياطين تمر بنا فتنتزع من بين جوانب المذنبين أرواحهم ورعبتنا بصور المقابر المحزنة واشكال الهياكل العظمية والديدان التي تأكل لحم الاجسام الفاسد وعلى هذا كان الموت شديداً .

ولم يذهب هول المقابر الا في القرن الثامن عشر فقد كانوا يجعلون في اعالي القبور الاواني المستظرفة والرياحين والأزاهير فكانت هذه القبور زينة بساتين الانكليز وحدائقهم » .

لم تفجع باريز وحدها باناتول فرانس وانما فجعت به البشرية برمتها ، لان اناتول رجل الانسانية وليس حظ وطنه منه باوفر من حظ العالم بأسره . يقول اناتول : لا يكون الواحد منا انساناً الا اذا أشفق على أخيه ، فلا يليق بنا ان نستحيل جلود صخر فلنشفق على الضعفاء لانهم يألمون من الأقوياء ولنرأف بالسعداء في هذا العالم فقد جاء في الكتاب « ويل للذين يضحكون » .

كان اناتول شفيقاً على الضعفاء وقد بلغت به شفقته المبالغ فكان عطفه على الضعفاء الذين يألمون من الضهد مثل عطفه على الضعفاء الذين ينشأ ضعفهم عن أعصابهم فيذهبون في الحب كل مذهب . ألف الكساندر دوما رواية بحث فيها عن مقتل رجل لزوجته لخروجها عن العفاف . قال اناتول « لو كنت قاضياً لما برأت القاتل من جنايته اللهم الا ان يطبق اطباء الشرع على انه مصاب بفالج في جملة اعضائه ، ولا عجب في ذلك ، فان قتل المرأة لأمر عجاب وهيهات مايطاق الذين يجترؤون على اشباه هذه المذابح . لا ريب في ان زوجة هذا القاتل كانت فاسدة الخلق ، ذات غرائز سيئة ، ولكن هل نسأل عن غرائزنا ، الم يك للتربية والميراث تأثير في اعمالنا . فمن موجب الاسف اننا نولد معوجين لا سبيل الى تقويم اعوجاجنا ، اننا نولد شيباً لا شباناً . لو فكر القاتل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في العناصر التي تؤلف جسم زوجته اللطيف لما حطم هذه الآلة الدقيقة ، ولكان غفر لهذه الروح المظلمة جناية أعصابها ودمها . اسمع ما تقوله الفلسفة الطبيعية في شعرها « ان لأمور الحب أسراراً غامضة ، ان غرائز المتقدمين التي كانت في الاصل تجمع في بطون الغاب بين أطراف الأبدان المعراة هي نفسها التي تقلق اليوم المرأة تحت ثيابها النفيسة . ما فتئت المرأة تحفظ دم حواء الغابات الكبيرة على علمها بالخفر ، وحرصها على القوانين » .

يعرف اناتول كل ما يستوجبه الأدب ومعاذ الله ان يذهل عنه ، ولكنه يرى ان الرأفة هي احسن الفضائل وان الفلسفة الطبيعية تعلم المسامحة وفضلاً عن ذلك فاذا جاء امر الحب فلا نجد الى التمييز سبيلاً — حبك الشيء يعمي ويصم —

الحب في رأي اناتول فرانس هو اللذة التي تحمل الأنواع الحيوانية على التزاوج والتناسل ، فهو عنده بمنزلة بقاء النوع عند علماء التاريخ الطبيعي ، وقد آلهه في كتاباته ، فهو في نظره أقدم الآلهة .

لما ولد هذا الآله لم يكن في العالم اثر من آثار العدل والعقل فلم يجد هذا الآله النمس شيئاً يخلق به دماغاً وعيوناً وآذاناً . ولد أعمى فهو الآن على الصورة التي ولد عليها وسيبقى على هذا الشكل في كل دهر ، يعمل فيخبط في اعماله خبطاً دون شيء من الروية ، الق نظرة على اعماله انها عظيمة ! لقد خلق كل شيء ولكنه خلق بغير عقل ولا فهم ، لقد برأ في اول الامر . حيوانات لله درها من حيوانات ! انه خلق أصدافاً وأسماكاً وزواحف ، وقد كان هذا الاله يومئذ يعيش في الماء ثم حسن على سبيل الاتفاق والتدريج طرائقه فخلق الحيوانات اللبونة ، التي أتعبته وأجهدته ثم خلق القردة فبقيت القردة زمناً طويلاً آياته الرائعة ، وقد خلق الانسان بعد القردة فلم يغير هذا الآله من طبيعته ، ولم يبدل من طريقته ، فبقي اعمى كما كان ولم يستعن بالعقل ولن يستعين به بحبس الليالي وهو محق في ذلك لان الحياة سرعان ما تنتهي اذا كان نشرها معقوداً بالعقل .

ان هذا الآله اعمى ولكنه يقودنا والشر كل الشر في ذلك ولكنه شر ابدي ، لان الحب يدوم ما دامت العوالم ، اننا نقاومه ونستولي عليه اذا كان اضعف منا ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكنه اذا اشتد استولى علينا وهذا ما يسمونه : منازعة الهوى ومثل الارادة والغريزة كمثل كفتي ميزان فالكفة الثقيلة هي التي ترجح وتميل ·

هذا هو الحب في نظر اناتول فرانس فقد كان سبب حياة الحيوانات من أدناها الى ارقاها ، وهو غريزي في البشر من مبدإ الخليقة الى منتهاها · وهذا ماحمل اناتول على الرأفة بالفاجرة التي خرجت عن العفاف لانها لم تخرج عنه الا بعوامل غريزية متمكنة من لحمها ودمها وأعصابها فلا سبيل لها الى التخلص منها ···

قلت في صدر المحاضرة كان بين اناتول وبين ابيه اختلاف في المعتقد وقد امتد هذا الاختلاف الى الذوق فقد كان اناتول يميل الى النمط المدرسي ، ما هو النمط المدرسي ؟ بعد ان هممت شآبيب الثورة الفرنسية ولمعت عوارضها انفجرت ثورة أدبية خلقية قلبت طرائق التفكير والحس واسمها النمط الوجداني بدأ بها مدام ستال وشاتو بريان وتجسمت في اربعة شعراء كبار وهم : لامارتين وموسه وفيني وهوغو كان المدرسيون أمثال الشاعرين بوالو وراسين يرون ان يمثلوا في فنهم جمال الحياة ويعتبرون العقل في الشعر الملكة الغالبة ويقتبسون عن التاريخ القديم نماذج فنهم و يستنزلون وحيهم من سماء الامم المتقدمة فخرج الوجدانيون على هذه القواعد بحذافيرها وهدموا بناء المدرسيين ، فرأوا ان يمثلوا في فنهم كل ما هو شنيع ومضحك في الحياة ، وان يكون الخيال الملكة الغالبة ، وان يستنزلوا وحيهم من ادب الامم العصرية فيأخذوا عن غيتي وشلر و بايرون وشكسبير ، فبدلاً من ان يكتبوا عن اساطير الاولين كتبوا عن الفن النصراني في القرون الوسطى ·

فاناتول فرانس كان يميل الى الفن المدرسي اي انه كان على النمط القديم ، وله في النقد أسلوب خاص فهو من فرقة النقد الذاتي فانه يغتنم فرصة ظهور كتاب من الكتب فيفصح عن خوالج نفسه ، ويعرب عن رأي يخامر ضميره وقد جمع رسائل نقده في اربعة كتب سماها « الحياة الادبية » تكاد هذه الكتب تكون مملة · يرى اناتول ان النقد انما هو ضرب من الروايات على نحو الفلسفة والتاريخ تستعمله العقول الفطنة الطلعة وكل رواية اذا فهمناها كل الفهم انما هي ترجمة المؤلف بقلمه ، فالناقد الحاذق هو الذي يروي خوالج نفسه في اثناء روائع المؤلفات وهذا الطراز في النقد يسمى النقدالذاتي ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال اناتول : « لا يوجد نقد موضوعي اكثر مما يوجد فن موضوعي ، وكل الذين يتبجحون بانهم يضعون في مؤلفاتهم شيئاً غير لواعج انفسهم فهم واهمون ، فالحقيقة ان المرء لا يخرج من نفسه ابداً وهذا من اكبر شقاء الانسانية .

اننا محبوسون في أنفسنا فكأننا في حبس ابدي ، فالذي يليق بنا ان نعمله هو ان نعترف بحالتنا الفظيعة ونقرّ باننا نتكلم عن انفسنا كل ما عجزنا عن السكوت فاذا كان الناقد حراً وجب عليه ان يقول :

« سادتي اني اريد ان اتكلم عني في اثناء كلامي عن شكسبير او راسين او باسكال او غيتي فان في ذلك فرصة جميلة » .

قال اناتول تعرفت الى المسيو كوفيليه فلوري وقد كان ناقداً قديماً ، وفي ذات يوم انطلقت نحوه وهو في داره الصغيرة فأراني مكتبته الحقيرة التي كان يفتخر بها وقال :

« سيدي انك لتجد كل الأنواع ممثلة في هذه المكتبة كالبلاغة والآداب الرفيعة والفلسفة والتاريخ ما خلا النقد فانه يحيط بكل الانواع ، نعم ياسيدي فالناقد يكون تارة خطيباً ، وتارة فيلسوفاً ، وتارة مؤرخاً » . لقد أصاب المسيو كوفيليه فلوري في كلامه فالناقد يجمع كل هذه الصفات او انه قد يمكنه جمعها فاذا أراد ان يبرز اندر القوى العقلية واشدها تنوعاً واختلافاً امكنته مناهز الفرص ، وهو يعمل تاريخ البشر العقلي من دون ان يخرج من نفسه ، فالنقد من حيث التاريخ هو آخر صيغة من الصيغ الادبية كلها وربما وصل الى استغراق هذه الصيغ كلها فانه يليق كل اللياقة بالجماعة الممدنة التي تكون ذِكَرُها كثيرة وتقاليدها طويلة وعلى الخصوص فانه مناسب للجماعات الطُلَعة ، المتعلمة ، المصقولة ، وتقدم النقد يستلزم ثقافة اكثر مما تستلزمه كل الصيغ الادبية الباقية . ابتدع النقد مونتان وبانتنوف وبيل ومونتسكيو فانه يتحدر من الفلسفة والتاريخ وقد استوجب انتشاره وترقيه جيلاً اطلقت فيه الحرية العقلية » .

هذا هو نظر اناتول فرانس في النقد وقد كان نقده اشبه شيء باحاديث يطارحها اهله وخلطاءه وكان يسير فيه سير المتنزه . فيقف حيث يطيب له الوقوف و يسترسل الى اذواقه وخيالاته على شرط ان يكون في هذا كله صادقاً ، اميناً ، رؤوفاً فلا يريد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان يعرف كل شيء ولا يشاء ان يفسر كل شيء و يعتقد باختلاف الآراء وتباين العواطف و يتكلم عما يجب أن يحب .

شغف اناتول فرانس بالنمط القديم شغفاً عظيماً ، فانظر الى رأيه في هوغو وهو من اكابر الشعراء المجددين .

« لا جرم ان علاج هوغو للكلمات كان اكثر من علاجه للافكار فقد ظهر انه أدمج في أسمى الفلسفات طائفة من الخيالات والاحلام منقطعة مبتذلة ، والذي يؤلمنا ويفزعنا اننا لا نرى في تآليفه الكبيرة بين الكثير من اشخاصه الفظيعة صورة بشرية . قال الأغريق : الرجل مقياس كل شيء الا ان فيكتور هوغو جاوز كل قياس لانه غير انساني ولم ينكشف له قط سر النفوس . لم يخلق هوغو ليفهم وليحب ، وقد شعر بذلك من غريزته ولهذا فقد أراد ان يدهش الناس وقدر على ذلك حيناً من الدهر طويلاً ، ولكن هل يستطيع المرء ان يدهش غيره في كل وقت . عاش فيكتور هوغو ثملاً تسكره الألوان ورنات الأصوات وقد أسكر العالم بذلك . هذه هي عبقريته كلها انه ذو افكار غريبة وانه متفنن منقطع النظر وهذا شيء كثير ولكنه ليس بكل شيء .

هذا هو رأي اناتول في هوغو فان اناتول شغف بلغته القديمة ، ذاهب في الحرص عليها كل مذهب ، ولع بمفردات اللغة لانه يرى في هذه اللغة صورة وطنه وقومه من قديم الدهر وحديثه ، ومرآة تنعكس فيها حضارة أمته ، فاللغة ملكت عليه عقله وقلبه فهو يحب معجمات اللغة لانها تحتوي على شيء جميل فخم فقد قال :

« انظر الى معجم غازيه او غيره من المعجمات ، وتصور انك ترى روح وطننا في هذا المعجم ليتصور ذهنك ان في هذه الصفحات عبقرية فرنسة وطبيعتها . ليتصور ذهنك ان فيها أفكارنا وأفكار اجدادنا ، وأفراحنا وأفراحهم ، وأعمالنا وأعمالهم ، وآلامنا وآلامهم . ليخطر ببالك ن في هذا المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، وآثار الذين استنشقوا الهواء الصالح وشموا النسيم الرقيق الذي نشمه اليوم . ليخطر ببالك ان كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الافكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عديدهم ، وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصى مقدارهم ، ليعجس في صدرك ان كل هذه الكلمات المجموعة انما هي لحم الوطن والبشرية ودمها وروحها » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بحث اناتول فرانس في كتابه «العبقرية اللاتينية» عن لغة الشاعر لافونتين فقال :

كان لافونتين يولع بالكلمات و يعرف كيف ينتخبها ، ولا يكون المرء كاتباً الا اذا حسن اختياره للالفاظ . فالكلمات هي افكار ، ولا سبيل الى الإصابة في الحكم الا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة . واظن ان الشعب الاول في العالم انما هو الشعب الذي يملك احسن الاصول في النحو وتنسيق اللفظ . قد يقع في أغلب الحالات ان الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتعانقوا . ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم بضبط كلمة كل شيء .

اني لا اجد عناء في بيان المآخذ التي أخذ عنها لافونتين أسلوبه ، لقد اخذ عن المتقدمين من الشعراء والقصاص ، يحب لافونتين العبارات القديمة فاذا وقع نظره على كلمة قديمة جزلة المعنى استخرجها من موضعها واستعملها في شعره في المقام المناسب . وقد استعمل ايضاً في أشعاره عدداً كبيراً من التعابير التي استعملت في عصر غير عصره ، ولكنه اعاد الى هذه التعابير شبابها .

فلا ينبغي لنا ان نضيع شيئاً مما يمكن ان ينفعنا ، وهذه حكمة اقتصادية تنطبق على كل الخيرات ، فهي تنطبق على خيرات اللغة كما تنطبق على غيرها فاذا أضاعت كلمة طيبة الأصل معناها الاول واصبحت لا تستعمل الا في معناها الخاص او في معناها المحرف ، فجدير بالكاتب الحكيم ان يعيد الى هذه الكلمة سعة معناها الاول وفسحته وعلى هذا مشى راسين ولافونتين . ثم قال :

يتبين لنا ان لافونتين الذي استعمل هذه الكلمات كلها لم يخترع شيئاً منها وليعلم الانسان ان حذاق الكتاب هم في الأعم من الأحوال قليلو الميل الى توليد الألفاظ ، فان كنز اللغة المشترك كاف وهذا الكنز لا ينقب فيه الذين يكتبون على السواء ، فكثير منهم لا يجدون فيه ما يحتاجون اليه اما لكسلهم واما لفقدان عبقريتهم . اما لافونتين فقد استخرج منه كنوزاً .

وبعد ان اشبع اناتول الكلام في لغة لافونتين قال :

« اتمنى لو ان آرائي هذه تقوي في بعض العقول محبة لغتنا ، لقد تغيرت هذه اللغة مرات كثيرة ، ولكن لم تتغير الا محاسنها . لقد قوي امرها ، وانبسط أفقها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واغناها كل نشء من عنده بكلمات تدل على افكار وعواطف وافراح وآلام وعلى مجهود ملايين من الناس ، لقد جاءت الينا على هذا النحو مترعة الجوانب من قرن الى قرن ، وهذا الميراث الوطني عزيز على كل النفوس التي تحب وطنها .

* * *

هذا بعض ما تمثله الخاطر وتصوره البال من آيات اناتول فرانس ، وما ذكرته انما هو غيض من فيض . ولئن فاتني كثير من صوب عقله ، ونسج طبعه . فلا يفوتني حفظه لغة قومه في القرن العشرين ، ودعوته شباب وطنه الى محبة لغتهم . فقد ملكت عليه لغته مشاعره ، احسن اليها ولم يسئ ، وبرها ولم يعق ، واشفق عليها ولم يك جباراً عنيداً ، ولم ير فيها رأي طائفة من أدبائنا في هذا العصر رغبوا عن لغتنا القديمة كل مرغب ، وانقبضوا عنها كل منقبض على انه ما ادخرت الآباء للابناء ، ولا أبقت الموتى للاحياء شيئاً افضل من هذه اللغة . ولئن عبثت الايام بمديد ملكنا فانها عجزت عن العبث بميراثنا الوطني وهو اللغة . صارعت لغتنا لغات شتى تعاقبت في آفاق الشام من قديم الدهر[1] فصرعت هذه اللغات بحذافيرها ، بعد ان سلبت حضارات اهلها اجمل جمالها واحسن جسنها وتمكنت في ربوع الشام وكثير من بقاع الارض تمكن الاحياء الذين صارعتهم الطبيعة . وصارعوها ومارستهم ومارسوها فعجزت عنهم فتركتهم وشأنهم يستضيئون بضيائها و يستنشقون من نسيمها ، اشتملت لغتنا على بداوة الجاهلية وحضارة الاسلام . واستوعبت شدة بني أمية ورخاوة بني العباس . ولئن درست رسومنا وطمست آثارنا فأضعنا ما أضعنا فقد بقي لنا رسم حفظ لنا ما قذفت به الخواطر وجاشت به الصدور . فرحم الله امرءاً تعهد هذا الرسم ونقده ، فزاد في محاسنه ونقص من مقابحه !

(١) ألق نظرة على الجزء الاول من خطط الشام للاستاذ العلاّمة رئيس مجمعنا العلمي ، وتدبر فيه فصل « لغات الشام » البارع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net